الماء وتمظهراته في الملاحم والاساطير
في بلاد وادي الرافدين

م.م. اسيل محمد ناجي
كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة بابل
aseel.mohammed@uobabylon.edu.iq

الخلاصة:
يعد الماء عنصرًا اساسيًا للخلق وانتقلت قدسية الماء واهميته في تجديد الحياة والتطهير والعبادة الى المعتقدات الدينية التي خلقت معتقدات بلاد وادي الرافدين فحلت حكمته في رموز متعددة منها، انه رمز الخصب والشفاء من الامراض والنقاوة والتطهير، وفي الوقت نفسه نجده رمزا للغضب والعنف والقسوة كما في اسطورة الطوفان ، ويعد الماء رمزا للحياة والبقاء المخلد، فانهمار الماء من السماء الى الارض تنبثق عنه الانهار والعيون الينابيع والابار.

الكلمات المفتاحية: الماء؛ الملاحم؛ الاساطير؛ الطوفان.

Water and its manifestations in the epics and legends in the country of Mesopotamia

Assist. Lect. Aseel Mohammed Nagy
College of Education for Human Sciences / University of Babylon
aseel.mohammed@uobabylon.edu.iq

Abstract:
The element of water is an essential element of creation, and the sanctity of water and its importance in renewing life, purification and worship were transferred to the beliefs of the beliefs of the creations of Mesopotamia, so its wisdom was dissolved in multiple symbols, including, it is a symbol of fertility, healing from diseases, purity and purification, and at the same time we find it a symbol of anger, violence and cruelty in the myth of survival and water The symbol of life, water of survival, and water of survival on earth, from which spring rivers and springs, innovation and kaharis.

Keywords: water; epics; myths; the flood.

المقدمة:
الماء (مقدس) باعتباره العنصر الاساسي في خلق الكون والاشياء، فهو المانح للصحة والحياة ذلك بدخوله في تراكيب الادوية المختلفة، وقد عكست العديد من النصوص السماوية ذات العلاقة بالطب بأهمية استخدام المياه في تحضير الوصفات الطبية والعلاجية ومسبب الموت والحياة وهذا ما جعلنا نبحث في غوره ومفهومه وتمظهره في الملاحم و الاساطير. انقسمت الدراسة الى مقدمة واربعة مطالب تضمنت عدة فقرات وخاتمة وأهم ما توصلت اليه هذه الدراسة من نتائج وقائمة بالمصادر التي افادتنا في دراستنا هذه.

اولا: اهمية الماء في معتقدات بلاد وادي الرافدين

يعد الماء (Mu)[١]، المادة الاولى للخلق ومصدر الخليقة وجوهرها وعنصرها الاساسي وديمومتها، والماء هو المخلوق الاول الذي خلقه الله (جل وعلا) ثم منّه خلق باقي الاحياء فهو اصل الكون[٢] ، والماء ومصادره المتعددة الشرط الرئيس لقيام الزراعة ، فمنه ما تغيث به السماء، ومنه العيون والابار (bartu)[٣]، ومن اهم مصادره الانهار الدائمة الجريان والتي تمثل المواطن الرئيسة لاستقرار الانسان وقيام المدنية ونشوء الحضارة وتطورها[٤]، وهو الخلاص من الجفاف والعطش، ولأهمية الماء قامت حوله العديد من الاساطير[٥]. من خلال دراسة النصوص السومرية والبابلية يتضح لنا ان اصل النشوء الاول كان المياه ، اذ اعتقد السومريون ان البحر هو الام التي ولدت السماء والارض، وهذا دليل على أنّ المياه هي المصدر الاول للوجود، ومصدر الحياة لذا نرى ان حضارة بلاد الرافدين نعتت الماء بشتى اوصاف التعظيم والتقديس وعبرت عن ذلك بالرموز والصور المختلفة على الاختام والالواح وواجهات المعابد، واتخذت شعارا من خلال (الاناء الفوار) الذي ينبع منه مجريان رئيسان لدجلة والفرات[٦].

ويستطيع الماء أن يحافظ على الحياة ؛ بتأمين الخصب الكوني من خلال تمظهراته العديدة كالمطر الذي يجعل الحقول تخصب الارض وتنتج المحاصيل المتنوعة [٧] الماء رمز الحياة والبقاء المخلد ولا غرابة ان يعده العراقيون القدماء عاملا جوهريا لإعادة الحياة وتجديدها، لما يجدد الارض اليابسة، ويعيد لها الحياة ويبعثها من جديد[٨].

ثانيا: آلهة الماء

١ـ الاله إنكي (ايا)

كانت العناصر الاساسية التي يتكون منها النظام الكوني هي السماء والارض والبحر والجو، ويمثل الإله انكي الإله الثالث في مجموعة الآلهة السومرية (الإله الموكل بالعمق أو مياه العمق) التي تسمى في السومرية (آبسو) وهو اله الحكمة.

وكلمة إنكي مكونة من كلمتين، فكلمة (En ki إن تعني (سيد الارض)، و Ea ايا تعني (بيت الماء) [١٠]، ولإنكي عائلة وأتباع لهم واجبات معينة تتعلق بجلب الخير للبشر، من هؤلاء الاتباع (عيد ID) الإله الذي ينوب عن إنكي إيا في المحافظة على المياه العذبة وتوزيعها، وابنته الإلهة (نينا Nina) إلهة الينابيع والأنهار والأمطار، ربما هي نفسها التي تمظهرت في الاناء الفوار شعار سومر القديمة، وزوجته ننكي(Nin ki) التي تعرف باسم الإلهة ننخرساك في النصوص السومرية احيانا او الإلهة دامكينا احيانا اخرى[١١]. فالماء هو خالق للأشياء التي تنشأ من المياه ان تسمية إنكي إيا بـ (سيد الارض)؛ لأن الارض هي مصدر الانهار والينابيع والآبار وتشمل المياه العذبة مانحة الحياة، وعُد إنكي المسؤول عن المياه العذبة، و حاكم الماء وسيد العمق المائي وهو اله المعرفة والحكمة [٩]، وهي الفكرة التي عنتها الآية القرآنية : (وجعلنا من الماء كل شيء حي).(سورة الانبياء : اية ٣٠) .

٢ـ الاله نن ازو

ورد اسمه في النصوص المسمارية بصيغة (^{d}Nin-a-zu) وتعني حرفيا (السيد العارف بالماء) ، والمقطع الثاني من اسمه (a-Zu) ازو يعني العارف بالماء اي المعرفة عن طريق الماء او الزيت فمهنة الطب والطبيب في اللغة السومرية تعني A-zu وهي كما اوضحت اعلاه المعرفة عن طريق الماء[١٢] .

٣) آلهة الماء الأخرى :-

(جابي البحر) وزوج الإلهة نانشة وإله البحر (سيرار) والإله (انبيللو) العارف بشؤون الانهار والمسؤول عن نهري دجلة والفرات وأحد أبناء انليل في العالم السفلي ، والإله دموزي (آبسو) الابن

البار لمياه الاعماق او الابن المرتفع في مياه الاعماق الذي يمثل المياه العذبة التي تسقي النباتات وتروي الحيوانات [١٣] .

ثالثا :- الماء وتمظهراته في الاساطير

(١) اسطورة دلمون :-

في اسطورة دلمون (البحرين حاليا) يقوم الإله انكي ايا بدور المنظم لشؤون الكون والحياة في بلاد دلمون بعد ان كانت تفتقر الى الحياة والطبيعة الخضراء ؛ بسبب شحة الماء فيها فتزدهر وتبدو فردوس خضراء بإدخال المياه العذبة الى اراضيها فانبتت الاشجار وشتى انواع النباتات ، فتصبح حديقة عامرة بالحقول الخضراء التي تملؤها انواع الفاكهة والاشجار وهذا دليل على ان الماء هو المحي في هذه الاسطورة فبعد ان كانت تفتقر للحيوية اصبحت نابضة بالحياة و الحركة بجريان المياه العذبة فيها[١٤] .

(٢) اسطورة نزول انانا / عشتار الى العالم السفلي :-

يتمظهر الماء في هذه الاسطورة بالمنقذ للإلهة انانا عندما جردت من كل شيء بدخولها العالم الاسفل ، اذ قام انكي ايا بخلق مخلوقين هما (كوركارا و كالاتور) اذ اعطى الاول منهما طعم الحياة ، والاخر هو ماء الحياة ، وامرهما بالنزول لانانا ورش الماء عليها بماء الحياة ، وهنا الماء هو المنقذ مرة اخرى في هذه الاسطورة ، ونقرا مقتطفات منها :-

" كالاتور ماء الحياة

..... والاخر طعم الحياة "

وستعود انانا الى الحياة"[١٥]

ويتمظهر الماء مرة اخرى بصورة المنقذ في الالهة العجوز (بيت بيليلي) التي اتصفت بالحكمة واستجابت لتوسلات دموزي فأطعمته واشربته الماء ، والاله النهر (النهر ربي ، النهر خالقي) ، و (اراد نهري) أي (عبد النهر) [١٦] . ربما النهر المقصود هنا هو نهر الفرات في بابل وفي حقيقة الامر خالق الاشياء ونهر الهياكل المقدسة ؛ لان بابل تستمد خصوبتها وحياتها بشكل رئيس من امواهه ، كذلك المعابد ، ويوصف النهر بالنار والغضب ، لأنه ؛ بهيجانه يجرف كل شيء امامه ، كما في ملحمة اتراخاسيس [١٧] اذ تكرر فيها الطوفان اكثر من مرة ، لان الجيل الجديد عادوا لازعاج راحة الاله انليل بضجيجهم ، والماء كان سببا لإبادة البشرية ، على الرغم من كونه مانح الحياة الابدية والسبب في بقاء الانسان والحيوان والنبات .

(٣) اسطورة الطوفان

في البداية تتحدث اسطورة الطوفان عن ملك يسمى (زيوسيدرا)، يوصف بالحكمة والتقوى ، أُخبر بالقرار الالهي الذي اعده مجمع الالهة من قبل (انكي ايا Ea) الذي نلتمس دوره كمنقذ للجنس البشري في هذه الاسطورة كما جاءت في السومرية والبابلية رغم تصميم الالهة على التخلص منه، الا انه على الرغم من تحذيره لزيوسيدرا او اوتونابشتم (نوح في القران) لم يتمكن ايا من تفادي تلك الكارثة العظيمة. حيث قامت الالهة بإرسال الطوفان الذي صاحبته العواصف والامطار التي استمرت ٧ ايام و٧ ليال اكتسح فيها الفيضان الارض وكان زيوسيدرا هو الشخص الوحيد الذي نجى من تلك الكارثة، محافظا على الجنس البشري ببنائه السفينة، في اسطورة الطوفان ان الاشارة الى العذاب الاليم تمظهرت بمجيئ الطوفان الذي يدخل فيه الماء كعنصر اساسي لتنفيذ القرار الاهلي، فكانت كلمة الماء متمثلة بالطوفان الباعث الاساس لذروة الحدث المتمثل بهول الطوفان، اذ قام اتونابشتم (زيوسيدرا السومري) بصنع السفينة لتجوب عباب الماء المتدفق، وكما في قوله جل وعلا: (فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا، فاذا جاء امرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ..). فقصة الطوفان محورها حركة الماء اذ تغيرت وظيفته من مصدر لنمو الحياة وديمومتها الى سبب رئيسي في فنائها وحمل الخير والنأي

به بعيدا الى حيث ارادة الرب لرسو السفينة بعد نجاة اوتونابشتم ومن امن معه او بمعنى الاسطورة السومرية من نجى معه من الماء كانت امورا مسيطرة على مجريات القصة ونلحظ فيها ان الماء وحركته كانت طاغية على مجريات الطوفان(١٧).

تقودنا اسطورة الطوفان الى مادة قانونية من قوانين الملك البابلي حمورابي وهي (الاختبار النهري او المحنة)(١٨)، وكما قلنا قبل ذلك ان الماء تمظهر بالعذاب والطوفان والغرق والعقوبة، انما بسبب خطايا وضجيج البشر فما بالك اذا ادعي امامه بالكذب، اذ كان الاختبار النهري عامل مهم في اثارة الرعب والقلق لدى الفرد المذنب، كون مياه النهر مقدسة وتحيط بالنهر الالهة من جميع جوانبه، بالتالي ينعكس هذا المنظر لدى الفرد فيقر مذعنا معترفا امام النهر، خوفا من عقوبة الرمي فيه. إذ كانت فكرة هذا الاختبار تقوم على اساس تقديس الماء والهته في بلاد الرافدين، ونستشعر ان المياه لها رهبة جعلت منها عقوبة، وربما لدور الماء الاساسي في نشأة الخلق عند السومريين والبابليين مما جعل لآلهة المياه المتمثلة بـ (ابسو وانكي ايا) مكانة كبيره من القداسة في بلاد الرافدين.

رابعا: الماء وتمظهراته في الملاحم

ملحمة الخليقة (السومرية – البابلية) انموذجا

تعد ملحمتي (الخليقة السومرية والبابلية) من اقدم الملاحم التي تحدثت عن خلق الكون جاءت من بلاد الرافدين وتبدأ الملحمة بـ: ((في البداية لم تكن هناك سماء ولم تكن هناك ارض، الكون عبارة عن مياه لانهائية وأزلية)) ، وايضا نقرا :

" عندما في العلى لم تكن هناك سماء
و في الاسفل لم يكن هناك ارض
و ابسو الأولي الذي منه سيولد الالهة
الوالدة تيامة التي ستلدهم جميعا
كانا يمزجان مياههما معا" (١٩) .

يذهب السومريين والاكديين الى القول أن في البدء لم يكن هنالك شيء ، وفي إطار العدم هذا ينخلق اصلان رطبان : احدهما مذكر (آبسو) محيط المياه العذبة المحدق بالأرض ، والثاني مؤنث (تيامة) ومعناه البحر ، وان الاصلين معا اصل وجود كل الآلهة والموجودات ، وهذا ما أكدته ملحمتي الخليقة (الاينوما ايلش) السومرية والبابلية(٢٠) .اذ يمثل المياه العذبة (ابسو) والمياه المالحة (تيامة)، والعنصر الثالث (ممو) ربما هو المياه الكائنة في السحب والضباب وهو وزير الاله ابسو، والالهة الاولى كانت هائمة بذاتها على وجه الماء فلم يكن هناك مقر لها، لان السماء لم تخلق ثم تتكون اليابسة بعد انفصال الماء المالح عن الماء العذب وهو امر ضروري لقيام لحياة نباتية وبشرية وحيوانية هكذا بدأت الحياة من الظلام والعدم والمياه المترامية الاطراف. وهناك عوامل مشتركة ما بين رواية تلك الملحمة سواء السومرية او البابلية :-

١. الماء هو المادة الاولى لكل شيء والذي كان قبل ابسو او ممو في الخليقة البابلية ومنهم خلق كل شيء.
٢. انفصال السماء عن الارض بقطع مردوخ جسد تيامة الى نصفين فجعل نصفها الاسفل الى السماء ونصفها الاعلى الى الارض.

وفي ملحمة الخليقة البابلية (حينما في العلى) وعندما ينتهي الصراع، وبعد الاحتفال بتشييد بابل يجتمع الالهة الكبار الى وليمة في البيت الجديد، وبعد ان شربوا وأكلوا قاموا بتوزيع الاعمال والوظائف السماوية والارضية، ثم نراهم هنا يؤدون قسما بالماء والزيت على الاحتفاظ بالحياة (عندها خروا ساجدين امام الاله مردوخ وربطوا انفسهم بالقسم بواسطة لمس حناجرهم بالماء والزيت ومنحوه الاسماء الخمسين) ، والنص ادناه يوضح ذلك :-

"**اجتمع الالهة العظام ..... واقسموا بالماء والسمن ان يتمسكوا بالحياة**"[٢١] فأهمية الماء هنا وتمظهره بشكل (القسم) دليل على قدسيته ودوره المهم عند الالهة العظام.

الخاتمة والاستنتاجات

بعد ان منَ الله تعالى علينا بإتمام هذه الدراسة، لابد لنا من الاشارة الى اهم ما توصل اليه بحثنا في رحلتنا مع (الماء وتمظهراته في الملاحم والاساطير في بلاد وادي الرافدين):

١- كان للماء دور مهم في توجيه كل شيء اذ رسم لنا صورة بيانية واضحة عن مفهوم الكون وتجلياته في الملاحم والاساطير كمادة للخلق الاول والعنصر الاساسي في الوجود ومانح الحياة والخصب وجالب الخير والنعم.

٢- رأينا في تمظهرات الماء الاخرى التي اتصفت بالغضب والعقوبة والقسوة والابادة وحامل الخير لأماكن بعيدة، وكاسرا لكل حواجز القسوة من خلال الطوفان والابادة التي حققها لبني البشر.

٣- نجده في الملاحم مادة الخلق الاول عندما لم يكن هناك شيء سوى الماء.

٤- قدس العراقيون القدماء الماء والانهار وان هذه القدسية لها علاقة بطقوس السكب والتطهير وارتباطها بالإله انكي / ايا.

الهوامش

1. Jermy, Blacket, A, concise Dictionary of Akkadian, Vol:5, Wisbaden, 2000, p.213. (CDA).

٢. تفسير البغوي (ت ٥١٠ ه)، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ، ج٤، ص١٣١.

http://www.shiaonlinelibrary.com

3. CDA, op .cit, p48

٤. رضا جواد الهاشمي، تاريخ الري في العراق القديم، مجلة سومر، مجلد٣٩، ١٩٨٣، ص٦٢.

٥. عزيز العرباوي، رمزية الماء في التراث العشري العربي، دراسة سينمائية، د.ص.

٦. يحيى ، اسامة عدنان ، الآلهة في رؤية الانسان العراقي القديم ، (دار الصداقة للنشر الالكتروني ، فلسطين ، د.ط) ، ص١٢ . (نسخة الكترونية) وينظر: اميمة سميح الزين، الماء وحضارة المجتمعات الانسانية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية العدد الاول تشرين الاول، ٢٠١٣، ص٥١-٦٣.

٧. عادل تيودور خوري، اختبار الله في الخلائق، لبنان، المكتبة البوليسية، سلسلة علوم الاديان (٨)، الظاهرة الدينية (٢) ، ٢٠٠٦، ص٤٠.

.٨ محمود الامين، شعار سومر رمز الحياة والحكمة والعرفان، العدد ٨، مجلد ٢، ١٩٥٢، ص.٢٢٩

٩. وداد الجوراني / الرحلة الى الفردوس والجحيم في اساطير العراق القديم ، (دار للشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٨) ، ص١٣٢

١٠. مريم عمران موسى ، الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٩٦ ، ص٧٠ .

١١. الامين ، شعار سومر ، المصدر السابق ، ص٢٢٦

١٢. هاري ساكز ، عظمة بابل ، ترجمه ، عامر سليمان ، (بغداد ، ١٩٧٩) ، ص٥٢٩ ، رينية لابات ، قاموس العلامات المسمارية ، (بغداد ، ٢٠٠٤) ، ص٢٢٩ ؛ cDA,dp.cit, p.42

١٣. خزعل الماجدي ، متون سومر ، (بيروت ، ١٩٩٨) ، ص١٥٢ -١٥٣ .

١٤. الجوراني ، الرحلة الى الفردوس والجحيم ..... ، المصدر السابق ، ص ٧١ .

١٥. جان بوتير ، اسطورة اينانا عشتار ، ترجمة : الاب البيرا بونا ، (بغداد ، ٢٠٠٥) ، ص١٦٣ -١٦٦.

١٦. سامي سعيد الاحمد، طاليس المطلي. ملاحظات، جملة دراسات في التاريخ والاثار، (بغداد، ١٩٨١)، العدد(١)، ص ١٤٢ .

١٧. ان الماء النازل كان من السماء وهذا ما اكده النص القرآني في قوله تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات..). (سورة الاعراف: آية ٥٧)، وقوله تعالى: (ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر) الجوراني ، الرحلة الى الفردوس ..... المصدر السابق ، ص ٧٩ -٨٠.

١٨. المادة الثانية : (اذا القى رجل على رجل اخر تهمة (ممارسة) السحر ولكنه لم يثبتها فعلى الذي اتهم بالسحر ان يذهب الى النهر وعليه ان يرمي نفسه في النهر فاذا غلبه النهر ، فعلى من اتهمه ان يستولي على بيته . واذا اثبت النهر ان

هذا الرجل بريء وخرج منه سالما ، فان الذي اتهمه بالسحر يعدم . اما الذي خرج سالما من النهر ، فعليه ان يستولي عل بيت متهمه) . فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، ط٢ ، (دار الرشيد للنشر ، ١٩٧٩) ، ص١١٩.

١٩. الجوراني ، الرحلة الى الفردوس والجحيم ..... ، المصدر السابق ، ص ٧٩ -٨٠؛ يحيى ، الآلهة في رؤية الانسان العراقي القديم ، ص١٣ . (نسخة الكترونية).

٢٠- الطعان ، عد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، (دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١) ، ص٣٥٨ .

٢١. جاكوبسون ، ثوركليد ، ارض الرافدين ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠١ ، نائل حنون، حينما في العلى، قصة الخليقة البابلية، (دمشق ، ٢٠٠٦) ، ص٣٢.

Bibliography:

1. Jermy, Blacket, A, concise Dictionary of Akkadian, Vol:5, Wisbaden, 2000,. (CDA) .
2. altaeaan , eadi alrida , alfikr alsiyasiu fi aleiraq alqadim , (dar alrashid lilnashr , 1981).
3. tafsir albughuii(t 510 ha), tahqiq : khalid eabd alrahman aleak , ja4. http://www.shiaonlinelibrary.com
4. rida jawad alhashimi, tarikh alrayi fi aleiraq alqadima, majalat sumar, mujaladi39, 1983.
5. yhiaa , asamat eadnan , alalihat fi ruyat alansan aleiraqii alqadim , (dar alsadaqat lilnashr alalkitrunii , filastin , du.ta). (nuskhat alkitruniati) .
6. amimat samih alzayni, alma' wahadarat almujtamaeat aliansaniati, majalat aleulum alansaniat waliajtimaeiat aleadad alawil tishrin alawli, 2013.
7. eadil tywdwr khuri, akhtibar allah fi alkhalayiqi, lubnan, almaktabat albulisiati, silsilat eulum aladyan (8), alzaahirat aldiynia (2) , 2006.
8. mahmud alamin, shiear sumar ramz alhayat walhikmat waleirfani, aleadad 8, mujalad 2, 1952, sa229.
9. wdad aljurani / alrihlat alaa alfirdaws waljahim fi asatir aleiraq alqadim , (dar lilshuwuwn althaqafiat aleamat , baghdad , 1998) .
10. jakubsun , thurkilid , aird alraafidayn , tarjamat : jabra abrahim jabra , (bayrut , almuasasat alearabiat lildirasat w alnashr , 1980) .
11. mariam eimran musaa , alfikr aldiyniu eind alsuwmariiyn fi daw' almasadir almismariat , atruhat dukturah ghayr manshurat , jamieat baghdad , kuliyat aladab , 1996 .
12. hari sakz , eazamat babil , tarjamah , eamir sulayman , (baghdad , 1979) .
13. rinih labat , qamus alealamat almismariat , (baghdad , 2004) .
14. khazeal almajdi , mutuwn sumar , (birut , 1998).
15. jan butir, asturat aynana eishtar, tarjamat: alab albira buna, (baghdad, 2005) .
16. sami saeid alahamad , talis almatliu . mulahazat - jumlat dirasat fi altaarikh walathar , (baghdad , 1981), aleadad (1).
17. fuzi rashid , alsharayie aleiraqiat alqadimat, ta2, (dar alrashid lilnashr, 1979).
18. nayil hanun, hinama fi alealaa, qisat alkhaliqat albabiliati, (dimashq , 2006) .